أم القرى في الوعي الإسلامي
قراءة في خرائط المعرفة والقداسة.
نحو نمط جديد من استثمار الببليوجرافيا.

أ.د. خالد فهمي
كلية الآداب/ جامعة المنوفية

مقدمة:

تمثل الببليوجرافيات أهمية بالغة القيمة والخطر في ضبط البحوث العلمية المعاصرة وتحقق لها أكثر من صفة من الصفات الواجبة لها .ولكن أحدا لم يفكر في الآن يستثمرها موضوعيا وتحليليا لخدمة المجالات المعرفية المتنوعة .وفي هذه الورقة محاولة لاستثمار الببليوجرافيات بشكل موضوعي يعتمد التحليل إجراء ، ليقدم طرحا جديدا يفيد ميادين العلم المختلفة اعتمادا على تحليل الببليوجرافيات موضوعيا

وتعتمد هذه الورقة على واحدة منها صدر حديثا وتفرغ لما كُتب عن مكة المكرمة .وقد كان اختيار هذا النموذج تعيينا راجعا لعدة أسباب هي :

أولا – حداثة الصدور .

ثانيا – قيمة الموضوع من الجانبين الديني والوجداني .

ثالثا – التداخل المعرفي لموضوعات الببليوجرافيا حول مكة المكرمة.

وسوف تتناول الورقة المطالب التالية:

- مدخل: في اصطفاء الأماكن
- أم القرى في الوعي الإسلامي: مقال في حدود التجليات.
- أم القرى في الوعي الإسلامي: مقال في حدود خرائط المعرفة.
- أم القرى في الوعي الإسلامي، وخصائص التأثير.

وهو الأمر الذي أرجو أن يسهم في الكشف عما يندرج تحت الببليوجرافيات من قيم علمية.

١- مدخل: في اصطفاء الأماكن

كان عجيبًا أن لا تقف نظرية الاصطفاء في التصور الإسلامي الذي أرساه الكتاب العزيز عند حدود الاصطفاء من الملائكة والبشر.

وكان عجيبًا أن تتجاوزهما إلى الاصطفاء من الأماكن والأزمان، وهو ما نتج عنه وجود أماكن مقدسة، أماكن ليست كالأماكن، أرض تتعالى سموًا، وحجارة تسمو علوًا!

والقول باصطفاء الأماكن أو غيرها نوع فرع من الاعتقاد، لا يصح بغير نص أو إخبار صحيح، وهو الأمر الذي تؤيده جمهرة النصوص في الكتاب العزيز والسنة المشرفة.

لقد تحدث الذكر الحكيم عن مكة المكرمة بثلاث طرق لغوية، تبدو كما يلي:

أولًا- ذكرها باسم العَلَم، يقول تعالى: {وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة} [سورة الفتح ٢٤/٤٨]. ويقول جلا وعلا {إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين} [سورة آل عمران ٩٦/٣].

ثانيًا- ذكرها بالكنية؛ يقول تعالى {ولتنذر أم القرى ومن حولها} [سورة الأنعام ٩٢/٦]. فأم القرى كنية عن مكة المكرمة.

ثالثًا- ذكرها بالإشارة المعيَّنة المقيَّدة المعرّفة، يقول تعالى {رب اجعل هذا البلد آمنا} [سورة إبراهيم ٣٥/١٤]. ويقول سبحانه {وهذا البلد الأمين} [سورة التين ٣/٩٥].

لقد تجمع في هذه الثلاثية ما يكون محددات كاشفة عن أسباب اصطفاء الله تعالى لمكة المكرمة، وإن كان الاصطفاء منه سبحانه هبة، والهبات لا تعليل لها، ولكن الآيات ناطقة بما يمكن أن يسمى محددات لهذا الاصطفاء:

أولًا- أولية ودود بيت الله تعالى، الكعبة المشرفة، أو المسجد الحرام في هذه البقعة الطاهرة.

ثانيًا- حياطته بالبركة.

ثالثًا- جعله سببًا للهدى.

رابعًا- جعل فتحها بداية لاستقرار الدين على الأرض.

خامسًا- جعلها مركز الدعوة، وانطلاقها.

سادسًا- دعاء الأنبياء لها، وفي مقدمتهم إبراهيم عليه السلام، أن تكون بلدًا آمنًا.

سابعًا- استصحاب الوصف اللازم الثابت لها، الجامع للأمان ورغد الرزق، وهو المعنى المستكن في التعبير بالأمن.

هذا فضلًا عن عدد كبير من الأحاديث النبوية الصحيحة المشرفة التي تُعلي من هذا الاصطفاء بمحددات ثابتة مستقرة، أعلنت عنها، ودلت على توارث الإعلان عن حرمتها من زمان عريق، يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو سعيد الخدري (صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (ن٤) ١٧٤/٩ بشرح النووي): "اللهم إن إبراهيم حرم مكة؛ فجعلها حراما". ويقول أيضًا صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما (فتح الباري، كتاب الحج، باب فضل الحرم ٤٤٩/٣ حديث ١٥٨٧): "إن هذا البلد حرمه الله". [انظر تحليل الحديثين في: تطبيقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية؛ صـ١٣٥-١٤١].

لقد صرنا نملك الدليل على قداسة هذا المكان الجليل، وهو ما يفرض على الأمة فحص هذه القداسة، والنظر في تجلياتها المعرفية:

٢- أم القرى في الوعي الإسلامي: مقال في حدود التجليات.

لعل ثمة حدود للتجليات؟ وهل ثمة حدود لتجليات الجميل؟ وهل ثمة حدود لتجليات الجليل؟ أسئلة ثلاثة بشكل مبدني هجمت عليّ وأنا أحاول البيان والكشف عمّا جاد في عنوان هذه الفقرة!

ولست ممن يحب أن يسبق إلى أن يقدم النتائج على مقدماتها، لكنني هنا مضطر إلى ذلك اضطرارًا بدافع علمي أيضًا، وهو الملخص في السؤال التالي: هل يصح أن يكون لما اصطفاه الله تعالى حدود في إطار البحث عن تجلياته؟!

أعتقد اعتقادًا يبدو خاليًا من الأخطاء أن الإجابة ينبغي أن تكون بالنفي!

لقد كان لاصطفاء مكة المكرمة تأثيره العميق في مناطق كثيرة من مناطق عمل الوعي الإسلامي، يمكن إبراز أهم علاماته فيما يلي:

أولًا- البعد الإيماني والعبادي والدعوي.

ثانيًا- البعد الفكري والأدبي.

ثالثًا- البعد الحضاري والمعماري.

رابعًا- البعد الديني.

خامسًا- البعد السياسي والاجتماعي.

إن هذه الأبعاد الخمسة يمكن أن تشكل أهم العلامات الحاكمة لتجلي اصطفاء الله تعالى لمكة المكرمة بما هي:

١- أرض مقدسة مباركة.

٢- أرض هي أول محل لعبادة الله تعالى بما هي أول محض لأول بيت وضع للناس.

أ- أرض هي منطلق الدعوة، ومركزها.

ج- أرض هي مركز الدين الخاتم، بعمقه الكبير من لدن إبراهيم وإسماعيل.
هـ- أرض هي مثال فريد للأمان والرزق الوفير للكائنات جميعًا، بشرًا، وحجرًا، وشجرًا.
من أجل ذلك كله كان الإيمان باتساع أفق حدود تجليات جلالها على فضاء الزمان من غير سقف لازمًا.

٣- **أم القرى في الوعي الإسلامي: مقال في حدود خرائط المعرفة.**
في هذا الجزء من المقالة نحاول أن نبرهن على ما كان لاصطفاء مكة المكرمة من تأثير في الوعي الإسلامي على المستويات المختلفة التالية:
أولًا- المنجز الفكري المكتوب في الاتجاهات العلمية المتنوعة.
ثانيًا- النظم والتكوينات العمرانية للمدينة الإسلامية.
ثالثًا- المدركات والتشكيل الوجداني والعقلي للمسلم.
وسأعتمد على واحد من أهم الكتب التي رصدت المنجز الفكري المكتوب عن مكة المكرمة هو: (معجم ما ألف عن مكة المكرمة عبر العصور) للدكتور عبد العزيز بن راشد السنيدي، الذي صدر عن دارة الملك عبد العزيز، بالرياض، ١٤٢٩هـ في (٥٧٠ ص)!
على أن فحص هذا المنجز الفكري المتجدد بسببها يأتي لاحقًا بعد أمرين خطيرين جدًّا هما:

(٣. ١) تأثير أم القرى في تصميم المدن الإسلامية، والبلدان الإسلامية المختلفة. وهو التأثير الناجم عن اتخاذ أم القرى قبلة لعموم المسلمين بعد التحول التاريخي الأبدي الدائم إليها من التوجه لبيت المقدس بعد الهجرة مباشرة.
إننا في مصر- مثلًا- نقسم البلد إلى إقليمين جغرافيين ظاهري الوضوح تبعًا لوجهة كل إقليم تجاه الكعبة المشرفة، وهو ما أنشأ منذ فترة طويلة جدًّا إقليمين:
أولًا- الوجه القبلي. (نسبة إلى وجهة القبلة أو الكعبة المشرفة).
ثانيًا- الوجه البحري.
ويتفرع عن هذا التأثير أنواع أصغر منه من أشكال التأثير المعماري والحضاري من مثل:
(٣. ١. ٢) تأثير أم القرى في تصميم المساجد في معظم البلدان الإسلامية من جهات مختلفة، معماريًا، وموقعيًا، وزخرفيًا.
لقد تركت الكعبة المشرفة أثرًا عميقًا في مواقع اتخاذ المساجد، وبنائها، وتكيلاتها الزخرفية والجمالية.
(٣. ١. ٣) تأثير أم القرى في تصميم القُرى والبلدان، فلقد اتخذ عموم المزارعين في مصر وغيرها على رءوس مزارعهم أماكن مربعة صغيرة للصلاة، تحاكي البناء الهندسي للكعبة.
(٣. ١. ٤) تأثير أم القرى على تصميم المساكن للمسلمين، في وضع الحمامات، في أوضاع مجانبة لاتجاه القبلة، وفي نقل فكرة المسجد إلى البيت فيما يعرف أحيانًا باسم مساجد البيوت على الأقل في بنيات معينة، وفي أوساط معينة.
(٣. ١. ٥) تأثير أم القرى على استزراع أشجار معمرة، ولا سيما من النخيل، والأشجار كثيفة الغصون والأوراق، وحياطتها بالحماية.
(٣. ١. ٦) التوسع في الأوقاف الغذائية، والإيوائية، بتأثير من أوقاف مكة المكرمة.
(٣. ١. ٧) التوسع في حفر الآبار، وشق عيون الماء، لأغراض السقية تعييناً بتأثير بئر زمزم، وتنامي الشعور بأهمية استنقاذ البدن الإنساني.
(٣. ١. ٨) تأثير أم القرى في طرق المواصلات الإقليمية، لربط مكة المكرمة بالعواصم العربية الإسلامية، وتيسير ربطها ببعض.

(٣. ١. ٩) تأثير أم القرى في تأسيس مدن كاملة على طرق الحج من كل العالم الإسلامي إليها؛ فقد كانت سببًا في ظهور مدن كاملة لوقوعها على طريق الحج.
(٣. ١. ١٠) تأثير أم القرى على حركة التجارة الإقليمية بين عواصم البلدان المختلفة. وهو ما سميناه باسم تأثير مكة المكرمة في النظم والتجمعات العمرانية في العالم الإسلامي.

(٣. ٢) تأثير أم القرى في الوجدان والعقل الإسلامي.

من جانب آخر فقد كان لمركزية مكة المكرمة وحضورها الدائم في خطاب الأركان التي يتأسس عليها الإسلام بما هو الدين الخاتم في ركن الحج- تأثيره العميق في النفس المسلمة وجدانيًا وعقليًا.

فقد استقر الوجدان الإسلامي المرتبط بهذه الشعيرة التي يتطلع من ورائها إلى تشريف البيت، وتنزيه، وتعظيمه على السعي إلى اختتام رحلة الحياة بزيارة البيت الحرام، بكل عوالق هذه الأمنية النفسية الإيجابية العاطفية.

وشكل هذا الارتباط العاطفي مدونة كاملة موسعة تصب في باب خدمة الوجدان الإسلامي من مثل:

(٣. ٢. ١) تحويل هذه الأمنية إلى مجسدات مادية يحتفظ بها الناس في بيوتهم ومحال استقرارهم، (في صور، ومجسمات، وألعاب أطفال إلخ).
(٣. ٢. ٢) التعبير عن هذه الأمنيات في أشكال فنية شعبية (أناشيد، ومواويل، وقصص شعبي، وحكايات إلخ).
(٣. ٢. ٣) التعبير عن هذه الأمنيات في أشكال درامية، ومسرحية متنوعة، تتجلى فيها الكعبة دائمًا مثالًا (للطهر والبراءة، والنقاء، والتقاء الأرض بالسماء، والملائكية إلخ).
(٣. ٢. ٤) تنامي ظهور أدبيات توشك أن تشكل غرضًا مستقرًا في الآداب الإسلامية تستحق فحصها ودراستها دراسة مقارنة، وهو ما يمكن أن يسمى باسم أدب الرحلة إلى مكة المكرمة!

أما ما يتعلق بما سميناه بخرائط المعرفة التي انبثقت وتفجرت بسبب من الوعي الإسلامي بمقداسته أم القرى فهي كثيرة متشابكة، يمثل جمعها في مخطط كاشف عن تشابكاتها أمرًا صعبًا لانتمائه إلى نوع المخططات الإشعاعية التي تتمدد دومًا، وتتفرع باستمرار.

وبإمكاننا أن نقسم هذه الخرائط المعرفية، طلبًا للتنظيم، على ثلاثة أقسام كبرى كما يلي:

أولًا- قسم ما فجرته وضعية أم القرى بقداستها مما يدخل في دائرة العلوم الشرعية.
ثانيًا- قسم ما يتعلق بالعلوم العربية، مما كان بسبب من الارتباط بها.
ثالثًا- قسم ما يتعلق بالعلوم العملية، مما كان بسبب من الارتباط بها.

أولًا- العلوم الشرعية الدائرة في فلك مكة المكرمة

كان لارتباط أم القرى بالحج بما هو ركن من أركان الإسلام، وبالعمرة بما هي في الشرع، وباحتضانها أول مسجد وضع للناس أثر في تفجير عدد كبير من المنجز الفكري المكتوب الذي رام خدمة هذا الارتباط، مما كان له انعكاسه على ظهور الفروع العلمية المختلفة من مثل:

- التأليف في مناسك الحج والعمرة.
- التأليف في فضل مكة المكرمة ومناقبها، وما تفرع عنها واختص ببيان فضائل الحجر الأسود، أو فضائل مقام إبراهيم، أو فضل زمزم ومائها.
- أحكام من انتهك حرمة البيت الحرام.
- تصحيح سَمْت القبلة.
- أحكام استلام الحجر الأسود.
- أذكار الحج، وأذكار رؤية الكعبة.
- أحاديث فضائل مكة، وجمعها، والعمل بها.

- تفسير آيات الحج.
- تفسير آيات الإسراء.

ثانيًا- العلوم العربية المنبثقة من تقديس أم القرى

كما كان لمنزلة مكة المكرمة أثره الكبير في ظهور مؤلفات أدبية وتاريخية وجغرافية تتعلق بها، وتدور في فلكها من مثل المؤلفات في المجالات التالية:

- أدب الرحلة إلى مكة المكرمة، أو الحج، والأدب المكي، والشعر المكي.
- تاريخ مكة المكرمة، وتاريخ فتحها.
- جغرافية مكة المكرمة، وجبالها، وطرقها، والطرق المؤدية إليها، ووديانها.
- تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم.
- تاريخ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

ثالثًا- العلوم العملية المنبثقة من تقديس أم القرى

وقد كان بمكة المكرمة أثر في تطور عدد من تطبيقات العلوم العملية، ولا سيما في المجالات التالية:

- إنباط المياه، واستخراجها، وحفر الآبار.
- تمهيد الطرق إليها، واكتشاف منازل مكة ووديانها.
- دراسة نباتات أم القرى، وأشجارها وخصائصها.
- دراسة تربة أم القرى وصخورها ورمالها.
- تطور تطبيقات كسوة الكعبة، وزخرفتها، وتطوير خطوط الكتابة عليها.
- تطوير بحوث مياه زمزم، وآثارها الصحية، وخصائصها المادية.
- دراسة أثر عمارة الكعبة على العمارة الإسلامية.

(٤) أم القرى في الوعي الإسلامي، وخصائص التأثير.

إن فحص أبعاد المنجز الضخم الذي خلفه تأثير مكة المكرمة في الوعي الإسلامي حاكم في مناطق مختلفة. وهو ما يمكن رصده من خلال الخصائص العامة التي حكمت تجليات هذا التأثير الذي خلفته منزلتها، وهي الخصائص التالية:

أولًا- شمول تأثيرها لمناطق المعرفة في العقل الإسلامي: شرعيًا وأدبيًا وماديًا.

ثانيًا- امتداد تأثيرها في الزمان، من مفتتح الزمان الإسلامي، من اليوم الذي بدأ فيه تباشير الدعوة إلى الدين العظيم.

ثالثًا- امتداد تأثيرها في المكان، فقد اتسع نطاق تجليات تأثيرها لتصل إلى البلدان الإسلامية المختلفة.

رابعًا- امتداد تأثيرها في تطبيقات العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، وهو ما تجلى في التقاسيم الإقليمية جغرافيًا، ومعماريًا، ونشأة المدن إلخ.

خامسًا-استيعاب التأثير للشعوب الإسلامية جميعًا، عربًا وعجمًا.

سادسًا- التنوع اللساني، فقد ظهرت تجليات تأثير مكة المكرمة بكل الألسنة التي آمن أصحابها بالإسلام، صحيح أن العربية تصدرت قوائم المنجز الفكري المكتوب، ولكن ذلك لم يمنع إسهام اللغات التركية والفارسية والأوردية إلخ.

سابعًا- تطوير عدد من الفنون والآداب بسبب من عكوفها ولزومها الارتباط بمكة المكرمة فقط من مثل:

- أدب رحلة الحج، أو أدب الرحلة إلى مكة المكرمة.
- شعر مديح مكة المكرمة، قصيدة مديح البيت الحرام.
- تطوير فرح من أدب التصوف المرتبط بمكة المكرمة.

إن أم القرى بما توافر لها من عوامل القداسة التي جاءتها من اصطفاء الله تعالى لها تملك أن تؤدي وظائف متنوعة تتوزع على محاور الإيمان والحضارة والسياسة والاجتماع والثقافة، تقرر أن التصور الإسلامي للوجود والحياة ملهم، قادر على أن ما يملكه هذا الدين العبقري كثير في مجالات تجديد الوعي بالحياة، وتجديد مناطق الوجود في هذا العالم.

إننا في حاجة إلى أن نستلهم أجواء الأزمان المتشعبة التي استوعبت الإنسان والحيوان والنبات والمادة في تجربة تحريم مكة المكرمة، في عالم يموج بالمخاوف والمخاطر والمحن!

الخاتمة :

حاولت هذه الورقة على امتداد مطالبها أن تقدم كثالا يكشف عما يمكن أن تقدمه قراءة البيليوجرافيات من خدمات معرفية موضوعية في المجالات العلمية المتنوعة ، عندما نخضعها للتحليل. وهو ما كشف عن أهمية تصميم البيليوجرافيات مفهوميا ، وتصنيفها موضوعيا .

المراجع

- تطبقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية ، للدكتور خالد فهمي ، دار النشر للجامعت ، القاهرة ،سنة٢٠١٤م.
- معجم ما ألف عن مكة المكرمة عبر العصور، للدكتور عبد العزيز بن راشد السنيدي، الذي صدر عن دارة الملك عبد العزيز، بالرياض، ١٤٢٩هـ.

*** *** ***